

## الفصل الثالث عشر

### ظهور دولة آل عثمان

ولقد ذكر المؤرخون الترك والجهايزة ما أسلفنا ذكره من دول وملوك سكنوا هذه الأرض، ووقع كثير من الخلاف بين الأمم، أما الترك ومن ملكوا أمرهم بأمر الله من ذرية عيص بن إسحاق ثم انتهوا إلى يافث ثم إلى نوح - عليه السلام - ومن أرومتهم الطاهرة ظهر السلاجقة أول من وطأت قدمهم بلاد الترك وفي عام ٤٤٧ أربعمئة وسبعة وأربعين اتحدوا مع أمراء الدانشمندية قلباً وقالباً واستولوا على ديار ملاطيا وقيصرية وعلائية وأنطاكية وقونية وأصبحوا ملوكاً مستقلين وظهروا من بلاد ما وراء النهر واقتضت مشيئة الله أن يغادر سليمان شاه وأرطغرل وهم أجداد العثمانيين بلدتهم ماهان خوفاً من بطش المغول وقدموا إلى مدينة أخلاط وسكنوها، وفي عام (١) ولما كانوا في اتجاههم غرباً إلى ساحل نهر مراد غرق رئيسهم سليمان شاه وهو يغتسل في النهر عند قلعة جعبر، وهناك دفن. وانطلق أرطغرل مع جميع رجاله إلى علاء الدين السلجوقي، وإذ هو في الطريق إليه صعد ربوة وبينما هو ينظر إلى سهل قونية وقعت عينه على جيشين كأنهما بحران يقتتلان، وكانت الغلبة لجيش التتار على جيش السلاجقة وعلى رءوس رجاله بيض العمائم فقال أرطغرل: لنبدل لهم العون فما نحن من التتار. فرفع لواءً محمدياً أبيض وتعقبه التتار بجميع جنودهم وأعد لهم كميناً فتردوا فيه، فكان فرارهم بدلاً من قرارهم فعادت الحياة إلى السلاجقة. فلم ينج أحد من التتار، وقدم علاء الدين مدينة قونية مظفراً فخلع على أرطغرل خلعاً فاخرة ومنحه رتبة أمير الجناح الأيمن وولاه على بورسة، وقد غنم أرطغرل غنائم كثيرة من مناطق «بيله جك» و«إيلي باط» و«إينه كول» و«يلق ابادو» وغيرها من المناطق المجاورة لولاية بورسة، وقدم بهذه الغنائم إلى السلطان علاء الدين، كما غنم كثيراً من الجند بمال الغزوات وأصبح علاء الدين على تعاقب الأيام ملكاً عظيماً بعون من أرطغرل وكان السلاجقة يتلقبون بالسلطين، ولما قدم الكفار إلى اوسكدار لم يستطيعوا رفع رأسهم

(١) بياض بالأصل.

لأنهم جميعاً تحت حكمه، وله سبعون من أصحاب الطبل والعلم و(١) أمير لواء وجيشاً. أما أمراء اللواء الذين كانوا للسلطان علاء الدين فهم، آل ذو القادرية فى مرعش والرمضانية فى أذنه والملك الغازى الدانشمندى فى سيواس، وآل (٢) فى قسطنونى، وآل فرهاد فى أماسية وآل كرميان فى كوتاهية وآل سبحان فى أنقره وآل صادحان فى ولاية صارصان، وإمارة آل عماد فى يد العماد، وإمارة صونقور فى يد أمير صونقور وإمارة كسكن فى يد الكسكان، وآل تكة فى ولاية تكة والحميديين فى ولاية حميد وإمارة منتشة فى يد آل منتشه وآل قرمان فى ولاية ولارنده وإمارة آل أيدين فى حوزة آل أيدين والأمير أرطغرل فى يلق اباد وفى عام ٦٨١ فى مدينة قونية توفى سلطان العلماء بهاء الدين محمد بن حسن البلخى البكرى فى عهد السلطان علاء الدين، وخلفه ابنه مولانا جلال الدين الرومى، ولقد منح الأمراء السالف ذكرهم لقب سلطان العلماء وسوف يذكر كل منهم فى موضعه ومضى السلطان علاء الدين بجيش عظيم صوب أرض روم وفى موضع يسمى فناده أصبح حزيناً وبينما كان يرقد عليلاً دس السم له ابنه غياث الدين تهالكاً منه على طلب الدنيا، وفى هذا الموضع مزق الجند غياث الدين تمزيقاً، فحملوا نعشهما إلى قونية ودفنوهما داخل القلعة، ودالت دولة السلاجقة بعد ذلك بستة وعشرين عاماً وعدد سلاطينهم أربعة عشر، فاجتمع جميع علماء الروم وتشاوروا فى الأمر، فولوا الخلافة أرطغرل وبايعوه، ولما عاد من غزوة بورسة مات جريحاً ودفن فى قسبة تسمى سكوت. كما استشهد صاووجى بك ابن أورخان فى غزوة طومالج ودفن كذلك إلى جوار أرطغرل، وتشاور العلماء ثانية فجعلوا عثمان الصغير بن أرطغرل خليفة مستقلاً فى رأس شهر سبعة، وبايعه السلاجقة من أعماق قلوبهم، كانت ولادته سنة ٦٥٦هـ، وتولى الحكم سنة ٦٩٩، ودامت سلطته ست وعشرين سنة وتوفى سنة ٧٢٦ وعمره ٦٩ عاماً. ثم أصبح أورخان بك خليفة بعده، ودامت له السلطنة خمساً وثلاثين سنة.

(١، ٢) بياض بالأصل.

وسليمان باشا ابن أورخان، وقره مرسل بك، واجه يعقوب بك مع أربعين من الأعيان بالقرب من قبو داغى فى البحر الأبيض من موضع يسمى بابسكى خرجوا على رمثهم مع خيلهم صوب الروملى، ولما بلغوا (غاليبولى) ركبوا خيولهم وأغاروا عليها، وتقدم أفواج الجند يوماً بعد يوم ففتحت قلعة (غاليبولى) وضرب سليمان الغازى باب القلعة بيده، وكتب عليه بسم الله الرحمن الرحيم، فتحت فى عام سبعمائة وواحد وستين ٧٦١، وأصبحت القلعة فى يدهم ووزعت الغنائم على غزاة المسلمين وتزوجوا ما أسروا من نساء، وولدن لهم.

وكان فى المنطقة المعروفة بالروملى من الكفار اثنتا عشرة ملة مثل الروم والبلغار وأفلاق الصرب وونيق والكروات واللاتين والبوشناق واللاز، وقد تخربت ديارهم ولم يستطيعوا فتح أعينهم وجمعوا من الغنائم ما جمعوا إلى أن وصلوا إلى نهر الطونه فغنموا الأموال الطائلة وأسروا منهم فتيات وفتية وأعملوا السيف فى آباتهم الكفار، وضيقوا عليهم الخناق فى ديارهم، وفتحوا آفاقاً من قراهم وقصباتهم ومدنهم. وفى موضع يسمى (بولايير) سقط سليمان باشا عن فرسه وتدرج على الأرض فرمحه الفرس فى رأسه؛ فمات. وهو مدفون فى قبر فى ذلك الموضع المسمى (بولايير)، وفى ذلك الموضع جامع وتكية ومبرة، وكانت وفاته عام (٧٦٠).

وأول من مضى إلى الروم هو سليمان باشا هذا وعاش أورخان ثلاثة وثمانين عاماً واعتلى العرش عام ٧٢٩ سبعمائة وتسعة وعشرين. أما مولده فكان فى عام ستمائة وثمانية وسبعين وتوفى عام سبعمائة وواحد وستين (٧٦١). وتلقب أخوه (خدا) وندكار (غازى) بالبك، وعاش خمسة وستين عاماً، وكان مولده عام ٧٢٧ وحكم واحداً وثلاثين سنة، فتح أدرنة. وفى حرب قوسوفا قام من بين قتلى الكفار من طعنه بخنجر فاستشهد. كما قُتل قاتله فى الموضع نفسه، ثم نقل جثمان مراد خان إلى مدينة بروسة ودفن فى موضع يسمى (اسكى قبليجه)، ثم خلفه ابنه يلدرم خان الغازى فى عام (٧٩٢)، ومولده فى عام ٧٤٨ واعتلى العرش عام ٧٩٢، حكم ستة عشر عاماً. وكان شجاعاً مقداماً وفى عام واحد غادر بلاد الترك لقتال كفار الأفلاق وبغدان، ولذلك

سموه يلدريم خان أى الصاعقة، وإن كان عظيمًا إلا أنه عاش ستين عامًا، وكانت له السلطنة ستة عشر عامًا. أما سبب موته فهو انهزامه فى حربيه مع تيمور، وبينما كان فى سجن تيمور مات محمولًا، فحملوا جثمانه إلى جامعته فى بروسة حيث دفن.

وآلت الخلافة من بعده إلى ابنه محمد خان جلىي فملك عام ٨٠٤، وكان مولده عام ٧٤٦ ومدة خلافته ثلاثون عامًا، وعُمّر (١) سنة.

وجاء بعده ابنه مراد بك، وكان ذلك عام ٨٢٣ وحكم واحدًا وثلاثين عامًا، وعاش تسعة وأربعين سنة وتوفى عام ٨٥٥.

آلت الخلافة من بعده إلى ابنه أبو الفتح سلطان محمد خان عام ٨٥٥، حكم واحدًا وثلاثين عامًا، وتوفى فى عام ٨٨٦.

وتولى ابنه با يزيد خان الخلافة من بعده وكان مولده عام ٨٣٥ ودام حكمه إحدى وثلاثين سنة، ووفاته فى عام ٩٢٨ وعُمّر إحدى وتسعين سنة.

وجاء من بعده ولده سليم الأول الذى ولد عام ٨٧٣ وكان فى الثالثة والأربعين حينما اعتلى العرش، ومات سنة (٩٢٦) وحكم ثمانية أعوام، وعاش إحدى وخمسين سنة.

وكانت الخلافة من بعده لولده سليمان خان الذى ولد عام ٩٠٠، وحكم ثمانية وأربعين عامًا، عُمّر (٢)، ثم كان الملك من بعده لسليم الثانى الذى ولد عام

٩٢٩ وجلس على عرش الدولة عام ٩٧٣ وحكم ثمانية أعوام، عاش اثنتين وخمسين سنة، وكانت وفاته عام ٩٨٢، ثم أصبح ولده مراد الثالث سلطانًا وكان قد ولد عام

٩٥٣، واعتلى عرش الدولة عام ٩٨٢ ودام حكمه إحدى وعشرين سنة وتوفى عام (٣)، ثم أصبح ابنه محمد خان الثالث ملكًا من بعده الذى ولد عام ٩٧٦

وكانت ولادته فى مغنيسا. واعتلى العرش عام ألف وثلاثة فى يوم الجمعة السادس عشر من شهر جمادى الأولى، حكم تسع سنين، وتوفى عام ألف واثنى عشر ١٠١٢، ثم

كانت الخلافة من بعده لابنه أحمد خان وذلك فى عام ١٠١٢، ومولده فى مغنيسا،

(١ : ٣) بياض بالأصل.

وجلس على العرش في الرابعة من عمره، فحل محل جده العظيم، وكان ذلك في الثامن عشر من شهر رجب عام ألف وثلاثة عشر ١٠١٣، ووافاه الأجل عام ألف وستة وعشرين ١٠٢٦، حكم أربعة عشر سنة، عُمر (١) سنة.

وجاء بعده أخوه مصطفى خان عام ألف وستة وعشرين ١٠٢٦ وعزل في الثالث والعشرين من شهر ذي القعدة، ومدة حكمه سنة وأربعة أشهر، ثم خلفه السلطان عثمان عام ١٠٢٧، حكم خمس سنوات واستشهد في الثامن من شهر رجب عام ١٠٣١، ثم أصبح مصطفى خان خليفة في غرة ربيع الأول من عام ١٠٣١، ثم عزل.

ثم كانت الخلافة للسلطان مراد الرابع ابن أحمد خان سنة ١٠٣٢، ودام حكمه سبعة عشر عامًا، وعاش (٢) عامًا، ثم آلت السلطنة إلى إبراهيم خان بن أحمد خان عام ١٠٤٩، ودامت له السلطنة (٣) عامًا، واستشهد عام (٤)، وأصبح ابنه محمد الرابع سلطان آل عثمان عام ١٠٥٨، وحكم (٥) عامًا، وعاش (٦) عامًا، أدام الله سلطانه أمين يا معين.

وقد خص الله - تعالى - الدولة العثمانية برعايته. واستولوا على سبعين مملكة، وكان سبباً في تملك العثمانيين وكانت السبب في تلقبهم بخادم الحرمين الشريفين ومولانا ملك ملوك العرب والعجم وعلى رأس جميع الملوك والسلاطين السلطان سليم الأول فاتح مصر ابن با يزيد خان - رحمة الله عليه.

### سبب غزو سليم لمصر

لا يخفى على مؤرخي العالم أن أبا الفتح السلطان محمد الفاتح بعد أن ألحق الهزيمة بأوزون حسن في صحراء «ترجان» عطف عنانه صوب طرابزون على ساحل البحر الأسود وحاصرها براً وبحراً، واستولى عليها بعد قلة من الأيام، وولى عليها الأمير با يزيد، فأقام العدل في الناس، ثم ولد سليم الأول وكان مسعود الطالع، وعلى تعاقب الأيام أصبح شمس الدنيا، ومن هذه البقعة خرج أبو الفتح ليحارب عصاة القره مانبيه، وفي موضع يسمى (مال تبه) على مقربة من اسكودار أدركته الوفاة، فانتقلت

(١ : ٦) بياض بالأصل.

السلطنة وتخت الخلافة إلى السلطان با يزيد ولى، وأصبح ابنه الأمير سليم والياً على طرابزون، وولاه عليها حاكماً مستقلاً ومعه عشرون ألفاً من جند الإسلام ممن قالوا «نحن لها». وأكد با يزيد أنه سوف يفتح أكناف الأرض واستقر على العرش فى الأستانة وهو يرعى أمور المسلمين، أما الأمير سليم فقد أغار على جورجيا ومكرلستان وداديان واتسع فى فتوحاته فى تلك البلاد، وبالتعاون مع ميراخان من أسرة أوزون حسن فتح سليم خان قلعة (جانخه) وجعل لها مفتاحاً من فضة. وأرسله مع ثلاثمائة قنطار من الأواني الفضية إلى با يزيد، فأرسل با يزيد ولى إلى الأمير سليم خلعاً فاخرة، وجعل سليم خان (جانخه) حاضرة ملكه، وضم إليها آلاف من حملة البنادق الشجعان ويسمون الآن جانخه لأن فى سبعة مواضع منها مناجم للفضة تجرى كالأنهار، وشاء الله أن يظهر فى طالع الأمير سليم منجم للذهب. فصنع منه مائة ألف دينار ذهباً وأرسلها إلى أبيه كتب عليها: (السلطان با يزيد بن محمد خان عزّ نصره ضرب جانخه سنة ( )<sup>(١)</sup>)، فقال له با يزيد لفرط سروره منه: لتكن المملكة حلالاً لك، لقد وهبتك ما فتحت من ديار والغيرة والحمية لك.

وأرسل بذلك منشوراً إليه، ولما بلغ هذا المنشور الأمير سليم حتى أصبح كأنه تنين ذو سبعة رؤوس وفى فترة قدرها سبع أو ثمانى سنوات أتم فتح خمس وأربعين مدينة وقرية وحصن حصين مثل: حصار، ونكسار، وبايورط، وانسيز، وطوزطوم وأرزنجان، وحينما مضى نصره الله نصرأ عزيزاً، إلا أن السلطان با يزيد ولى كان مشغولاً بمحاربة البنادقة فى أوربا وفتح قلعتى متون وقرون من ولاية المورة، وقد تعاون علاء الدولة بن ذى القدر مع القزلباش، والآق باش فى مرعش على قلب واحد وهدف واحد فبلغ القزلباش طوقاد وسيواس وأماسيه وعثمانجيق واستولوا عليها واستأسد العجم يوماً بعد يوم. وكان الأمير سليم يغير على مؤخرتهم وينال منهم ولكن ما العمل ولعجم عدد لا يُستهان به.

(١) بياض بالأصل.

وذات مرة قدم با يزيد على رأس جيش عظيم وتحارب مع العجم فى سهل طورحال وكانت الحرب حرباً ضروساً، ومن قبل علاء الدولة صاحب ذو القدرية أرسل سلطان مصر الغورى اثنى عشر ألف فارس دخلوا المعركة واشتبكوا مع جند با يزيد، فكانت سوقاً للسلاح لا قدرة للسان على وصفها، وفى وقت الغروب اتجه الأمير سليم بجنده إلى جبال جانخه، وفى جهة أخرى بقى العجم والتركمان وجند الغورى فى ميدان المعركة، أما الأمير سليم فكان يقول: تَبَّ لكم أيها المصريون تَبَّ لكم، إذا ما وهبني الله تعالى عرش آل عثمان، على عهد الله أن أغزو العجم، ثم ابن ذو القدر، ثم مصر، إن هؤلاء ملوك مسلمون إلا أنهم يؤازرون العجم، أما القزلباش فقطعوا رءوسهم وأرسلوها مع الرسائل من اسكودار إلى حكام سيواص وبناء على ذلك بدأ آل عثمان يؤدون الخراج للعجم، وبذلك ذل العثمانيون وحقروا، فأثر با يزيد ولى حياة الخلوة والاعتكاف، وبدأ يقوم بالمجاهدات والرياضات ونفض يده من الدنيا، واستشار سليم أهل المشورة من ساكنى طرابيزون إلى ساكنى الأستانة، وقالوا له: اظهر لنا فى شزيمة من الجند وسوف نسلمك العرش، قضى الأمر وحسبنا هذا ولا شك، ولما شاع هذا الخبر كان سليمان خان ابن سليم خان قد ولد فى مدينة طرابيزون وكذلك سليم خان، ولذلك كتب الشاه إسماعيل رسالة مفعمة بالفحش سماه فيها ابن اللاز، كما كان الأمير سليمان ابن سليم شاباً كُفُتاً، كما رغب سليم إلى أبيه أن يسند ولاية (كفه) إلى سليمان، فتقبل منه هذا الرجاء، وقدم إليه خمسة آلاف جندي ممن قالوا (نحن لها) وبماتى سفينة بلغ (كفه) من طرابيزون، واعتلى عرشها وبدأ يجمع الجند حوله، وعلى إثر ذلك أركب الأمير سليم عشرة آلاف جندي فى خمسمائة سفينة وبلغ ميناء كفه ودخل قلعتها والتقى بملك التتار منكلى كراى خان وأطلعه على السر فقال خان التتار على بركة الله، ومضى فى أربعين ألف جندي وجمع سليم عشرين ألفاً كذلك وقطعوا المنازل والمراحل وأقاموا فى موضع يُسمى «أوغراشى دره سى» فى منطقة تسمى برادادى ووافق جند الديوان السلطانى من أتباع السلطان با يزيد ولى على ملاقة سليم، وشاور با يزيد أصحاب مشورته فقال أحدهم: إنه شاب سعود طالما يعتلى العرش سوف يقضى علينا فالأجدر بنا أن نحاربه،

وبذلك بدأوا فى القتال. أما سليم فلم يتحرك. فأطلقوا على جند سليم البنادق والمدافع، وفى وادى «أوغراش» واجه الفريقان كل منهما الآخر واختلط المتحاربون ودارت الدائرة على عسكر سليم وفرّ صوب الطونة واتصل بعلماء الصوفية وانهزم على ساحل البحر الأسود، وفى موضع يسمى وارنه ركب فى سفينة ثم انطلق إلى حاضرتة القديمة طرابيزون ولزم الصمت، أما نائبه (صارى قياىك) فكان الحاكم فى طرابيزون كما أن (على بك) قام بالحراسة وتولى الأمير سليمان شئون كفه.

### سيرة السلطان سليم خان

إن سيرة السلطان سليم هذه أوردها فى أمانة من أبى، انتقل والدى الدرويش محمد ظللى - رحمة الله عليه - من دار الفناء إلى دار البقاء وله من العمر مائة وسبعة عشر عامًا، وعلى ما تجولت سائحًا لم يتشرف أحد مثلى بمصاحبة ثلاثين سلطانًا من آل عثمان، ما عدا السلطان سليمان خان الذى صاحبتة فى غزوة سيّدوار وكنت حاضرًا حارضة فتح قبرص مع القائد مصطفى باشا وأرسلت مفاتيح قلعة (ماغوسه) إلى السلطان سليم الثانى وبعد ما أحسن وأنعم علىّ منحنى رئاسة جوهرى الباب العالى، وأعطانى المنشورات الدائمة، وفى عهد السلطان أحمد صنع والدى الميزاب الذهبى للكعبة فى مكة، ووضع على سطح الكعبة ميزاب الرحمة مع خدمة أمانة الصرة. والغرض من هذا تبيان أنه كان شيخًا مجربًا خبيرًا، وقزو على أغا الذى كان يسير فى ركاب السلطان سليمان خان، مات وله مائة ثمانية وأربعون سنة.

واجتمع عبدى افندى صاحب منزل برنجى زاده ومحمد افندى قره فروعرّب، وبمقدم هؤلاء الشيوخ سررتُ بهم، وبينما كانوا يتحدثون مع أبى دخل رجل نحيف يتوكأ على خدم وما إن ظهر من الباب حتى نهض جميع الجالسين مع أبى فقدموا لاستقباله فى إجلال وإعظام وأجلسوه على أريكة عالية ورحبوا به.

وكان رحيق البرش والقهوة مما يشرب على نطاق واسع وتحدثوا وانتشوا؛ فأمالوا قلانسهم، وجعلوا يهزون؛ فقال قزو على أغا الذى كان يسير فى ركاب السلطان سليمان: يا عزيزى حليم جلبى افندى بحق روح سيدك السلطان سليم الأول وكرامة

للسلطان سليمان حل مشكلنا هذا؛ حين نحارب السلطان سليم ووالده السلطان با يزيد في وادي أوغراش بالقرب من سوق حاجي أوغلو، ولحقت الهزيمة بسليم؛ فانطلق إلى طرايزون وبدّل ثيابه وقال: حدثنا عما رأيت في سياحتك. وأمسك يد أبي من خلف، وقال: بينما كان سليم منزوياً في طرايزون دعاني أنا وقره نديم إلى حضرته، وقال لنا: ما قولكما أيها الفتیان؟ هل لي من سياحة معكما، (فقرأنا الفاتحة بعد البسملة، بدون أن نسأله عن وجهتنا في هذه السياحة)، وأخرج سليم مصحفاً من جيبه واستحلفنا عليه بأن تبقى هذه الأسرار طي الكتمان، فأقسمنا على هذا عملاً بالقول: تطير رؤوسنا، ولا نفشى سرنا.

ودخلنا حجرة الخزانة فألبس كل واحد منا حزقه بكتاشيه وأعطى في يده بلطة مسلمية، وفي خصره مقلاع داودي، وعلى رأسه عمامه واحديه وربطنا على حضورنا تنوة حمراء من الجلد اطمسك، واعطاه مجموعة عظيمة من التحف. ووضع على كتفنا فرواً وإحراماً؛ وأحضر لنا حماراً فحَمَلْنَا الكتب والهدايا، وفي الصباح غادرنا طرايزون في غفلة من العدو، وانطلقنا في طرثنا، أما سليم ده ده فكان فتى قوياً مهيباً، وشاباً عالي الجبهة، ولما كنت أنا وحليمي وقره نديم شايبين في العشرين وكأنا اثنان من ملاعبى القروود وطوال الطريق لم تتلکم في شئ من أمور الدولة وجعلنا نصيد في تلك الديار فصدنا كثيراً واتسعنا في الفتح، وقلنا لنمض إلى بلد آخر، وفي اليوم السابع صليْنَا في جوامع بديار قره بوداق خان بإقليم الملك شامخال ملك داغستان، ثم التقينا بقالقه شاشمخال خان، فقال: من أين جئتم أيها الدرويش، فقال إن سليم ده ده، إننا قادمون من بلاد الروم. فنزلنا ضيوفاً لديه أيام عدة، ثم مضينا من هناك إلى مدينة (طرخو) ثم إلى مدينة (قوون) ثم إلى (دميرقوب) على حدود العجم. وتسلمنا رسائل من خان العجم. إلى قلعة (باكو) ومنها إلى كيلان وكنجه وشيروان، وبلغنا مازندران على ساحل بحر الخرز. وهناك مكثنا ثلاثة أيام وثلاث ليال ثم مضينا إلى (قم) ثم إلى (كاشان) ثم إلى جبل ذيلم وفي خراسان كان تجديد البيعة من مولانا الإمام ( ) \* وتجديد السكه. وخدمنا لديه مدة شهروحملنا الرسائل إلى أبناء (حاجي بكتاش ولي)

فى بلاد الروم وأذن لنا الشيخ بالمغادرة . ولما بلغنا أصبهان كنا قد طفنا بمائة وسبعين مدينة، فى ذلك المكان بلغنا أصفهان الذى شيدت فيه هذه المدينة المسماة بنصف الدنيا، وأقمنا فى خانقاه للقلندرية بأصفهان، واتجه كل منا إلى صوب ومضينا لمشاهدة المدينة، وفى المقاهى اتسعت الشهرة لسليم ده ده، بمهارته فى لعب الشطرنج حتى أن أحداً من أساتذة اللعبة، لم يكن بمقدوره أن يرفع ييداً أمامه، وقد تملكه العجز أهل أصفهان وملاّتهم الحيرة من لعب سليم ده ده وقالوا إذا لعب هذا الدرويش الشطرنج مع شاهنا الجميل فلن يسلم منه وسيغلبه وأقسموا بالله جهد أيمانهم . وقالوا للشاه عليك أن تلعب الشطرنج مع سليم ده ده هذا . فقال الشاه آتوا لى بهذا الدرويش فوراً فرأينا رجلاً على حمار أشهب يخرج من خانقاه القلندرية وسلم قائلاً السلام على عباد الله العاشقين . فقالوا زادكم الله عشقاً بكمال جمالك فلما قالوا تفضل الشاه يستدعيكم عندما وصلنا نحن الأصدقاء والظرفاء الثلاثة بخرقنا الفاخرة إلى حضرة الشاه أخرج سليم ده ده من خصره صوراً وتلى دعاء محمدياً ودعاءً لحيدر الكرار وهى تتألف من اثنى عشر بنداً ترمز إلى الأئمة الاثنى عشر، وقال من أسماء الله الحسنى: يا واحد الفرد الأحد القادر المؤخر الأول الآخر الظاهر الباطن الوالى، كما تلى اثنى عشر زمزمة وذكر الأسماء كذلك، وقال: ليس منى ركوع ولا منى قيام السلام عليكم، عليكم السلام وترنم بهذه الأبيات داعياً له:

إن الآفاق أيها الملك نور ونار  
فكن للدهر مصباحاً مثل الشمس أنار  
الصحراء والوادي لنا فجة عطر  
وكن للروض زينة كالزهر  
لم يخلق الله الدنيا إلا بك  
وحيثما كنت كن يا ملكى الملك

فلما أنشد سليم هذا الدعاء، وقف الشاه إسماعيل من فرط سعادته، وقربه إليه وقال له أهلاً وسهلاً بك، ولما قال له: من أين تحمل السلام، قال له: يا مولاي، أنا غرس يد حاجى بكتاش ولى فى أرض قيصر وزرت ديار القرم ثم مملكة شمخال، ثم مشهد سلطان خراسان فى بخارى وأخذت الرسائل من الشيخ، وجئت لرؤية جمال سلطانى لأسلمها إلى الشاه يدك بيد، ومن فرط سرور الشاه قال: أهلاً بك فى دارك، فقال سليم

ده ده: هو كذلك يا مولاي، وكان يعنى أنها ستصبح داره، وقرأ الشاه رسالة الشيخ ودلنا على ركن فى قصره الشامخ، فمكث فى أصفهان مدة مديدة فجعل الشاه إسماعيل سليم ده ده نديماً له وقاصاً يقص عليه الحكايات، وقد أنس به الشاه، وانعقدت بينهم أواصر الألفة. وذات يوم قال له الشاه: يقولون أنك بارع فى لعب الشطرنج، فقال له سليم: حقاً يا مولاي حقاً، فقال الشاه: هيا لنلعب سوياً من قبيل المحبة فإما العرش وإما الحظ، فقال له سليم ده ده: ومن يا مولاي بقادر على منزلة الشاه، إن منصب الشاهانية يمنع ذلك، فقال الشاه: دعك من هذا وافعل كل ما فى وسعك، وها هو الميدان لك وتدبر الأمر، فرأى سليم فى قول الشاه تواضعاً منه وقال: الله كريم، وعندما جعلاً يلعبان تفاعل سليم وقال فى نفسه: يا رب إذا ما تغلبت على هذا الشاه فإن بلاده سوف تهزم بسيفى والفرصة لى، وجرى قضاء الله أن يدخل الشاه فى خاتة (مات) أى أنه هُزم فأنشد سليم هذا البيت:

عندما يشتبك الفيل بالفيل فالموت محقق  
فاسحب الفيل من خاتته فالملك قد مات

ولما غلب الشاه، غضب غضباً شديداً ولطم وجه سليم، فقال له سليم: لقد أخلفت وعدك عندما قلت لى دعك من الشاهانية وافعل ما بوسعك، فأنا لم أفعل بقدر ما أعرف، ومات الملك لكنى يا مولاي لست ممن يخلف عهده، ثم رمز قائلاً سنلعب مرة أخرى ذات يوم، وسأقول مات الملك أيضاً، إلا أن الشاه لم يفقه قوله، وقال الشاه لنلعب فى يوم آخر، ولعبا فى ذلك اليوم ثلاث مرات، وغلب الشاه فى تلك المرات الثلاث أيضاً، فقال له الشاه أيها الديوث أتغلبنى فى كل مرة، ولكن سليم وحقق بغيته، ونال من الشاه عطاء جزيل، وأذن له أيضاً فى زيارة ضريح الترك الأتراك الشيخ أحمد اليسوى شيخ حاجى بكتاش، وغادر أصفهان وشاهد مدناً كثيرة وزار كثيراً من أولياء الله ودعوا له بالخير، وبلغ تبريز، وهمدان، وأردبيل، ودرگزین، ودرتسك، ودرنه، وشهربان، وبغداد، حيث مكث فى الأخيرة أربعين يوماً زار فيها ضريح الإمام الأعظم، وعبد القادر الجيلانى والشيخ شهاب الدين السهروردى، وسلمان الفارسى، والإمام موسى الكاظم، ومعروف الكرخى والإمام الحسين والإمام على كرم الله وجهه، وكل أولياء الله، وعفر جبينه على عبتاتهم، وطلب المدد من روحانيتهم.

## ذكر مجيء الأمير سليم من بغداد إلى الكعبة

### في أول سياحة له

ثم مضى سليم مع حجاج بغداد إلى الكعبة في سبعة عشر يوماً، وحج البيت الشريف، كما قبل يد كبار أولياء الله الذين على قيد الحياة هناك، ودعوا الله له بالخير، ثم تابع زيارته فمضى إلى المدينة المنورة، في معية حجاج مصر، ثم زار قبر الرسول ﷺ وتضرع لرسول الله متعلقاً بسياج قبره، وصاح صيحة عالية وهو يقول: لقد انشقت مرارتنا يا رسول الله، رفعتنا من شأن شرف الإسلام ويا له من شرف ولكن شراكة مصر الكفرة أضروا به، على عهد الله إذا توليت ويسر لى أمرى وفتحت لى مصر فسوف أوقفها عليك وأجعلها مخزناً لأطعمة الحجاز، وسأرسل إلى أمتك منها فى كل عام الكسوة والصرة، وجعل سليم يردد هذا من قوله سبع مرات متتجياً: وإذا ما دعانى معدم بجوار ضريحك مستغيثاً بى قائلاً: يا سليم. كنت كفيلاً به مغيثاً له. وأشار إلى أنه سوف يقيم العدل فى الرعية ويبسط رعايته على علماء مصر، ثم حمد الله وأثنى عليه. وقدم سليم مصر مع فوج من حجاجها وبلغها بعد أربعين يوماً، ونزل ضيفاً على تكية اليمندى فى القرافة الكبرى وفى هذا الوقت وصل أسبابه بأسباب الشيخ أبو السعود الجارحى والشيخ مرزوق كفاى؛ فقرأ عليهم السلام فردّ الشيخ أبو السعود الجارحى قائلاً: وعليكم السلام يا صاحب رسول الله ويا حاكم الحرمين الشريفين، ويا حاكم مصر سلامتك سلامتك، عجل بالرحيل إلى بلاد الترك.

وكان ذلك بالمكاشفة وعرف ذلك الشيخ مرزوق كفاى بالوسيلة نفسها، وكان يجيد اللغة التركية، وقال له: امض سريعاً إلى بلاد الترك واعتل عرش الدولة ثم انطلق إلى المعجم وبعد ذلك حينما ندعوك تعال، ولكن لا تبق فى مصر. لقد أخرجونا مع كبار أولياء الله من مصر، ولكن ما رأيناه فى مصر من فسق وفجور وعصيان فى اثنى عشر يوماً لم نجد فى بلد آخر، ففى تلك الفترة من الزمن أقام السلطان الغورى قناطر مياه القاهرة وعسف الناس عسفاً شديداً وأمر العلماء بحمل الأحجار، ولم تكن له سيطرة على جنوده، وقد رأينا من هؤلاء الجنود الظلم والعدوان.

فركب سليم على صهوة جواده بعد أن استأذن من المشايخ، وأرسل إلى خليل بن رمضان في (أذنه) حتى يكون في خدمته في العودة، فمضى من مصر وبلغ (أذنه) بعد عشرين يوماً، وبلغ بلاد الترك، وبعد أربعة أيام بلغ طرابيزون، والتقى بأمه الرؤوم ودعت له بالخير، وسأل عن أبيه با يزيد ولى فأخبرته أنه مضى إلى ملك أردل وأفلاق وبوغدان الكفار، وكانوا قد شقوا عصا الطاعة جميعاً واتحدوا جميعاً، ودعت سليم، وقالت له مرحباً بمقدمك لقد فارقتنا أميراً عظيماً ولا ذكر له منذ عامين، فهل استشهد في هذه الحرب، واستدعوا الأمير سليمان بن سليم من «كفّه»، وقالوا إذا أجلسناه على العرش لدبر الأمور يوماً بعد يوم، وفي التو وصلت رسائل الدرويش سليم إلى الأستانة؛ فقالت أمة محمد: إن الأمير سليم حى يرزق فى خير وعافية. ووصلت الرسائل من جميع الجهات والفرق العسكرية وكان القول فى الرسائل . . يا مولاي الأمير لا لزوم للعسكر حسبنا عهدنا ولتأت. ولما بلغت الرسائل الأمير سليم فى طرابيزون بعد سبعة أيام. وفى سبعمائة سفينة مضى سليم إلى «كفة» فعانق الأمير سليمان، ورأى فيه بطلاً شجاعاً فقبل عيناه النرجسيتين، وأصبح سمر محمد كراى خان، فقدم كذلك واقترب من ادرنه فى جيش قوامه سبعون أو ثمانون ألف مقاتل، واقتضت مشيئة الله أن كفار المجر قاموا بتحركات عسكرية فأرسل سليم إلى بلغراد، ولما بلغ سليم (صوفيه) جاء عسكر الإسلام ببا يزيد خان إلى اسطنبول، فمر هذا الخبر بسمع سليم؛ فراجع عن «صوفيه»، وفى سهل «چورلو» احتشد الجند وقالوا بحياة با يزيد وسقوط سليم. أما المنصفون فقالوا إن الدولة العثمانية ضاعت منا وتشاوروا فى الأمر، فقدم سليم فى جيش عظيم وخرج للقتال وبينما كان القتال يدور عزل السلطان با يزيد ولى وأصبح سليم سلطاناً فى سهل «چورلى»، فقال با يزيد ولى لسليم بعد أن عزله: لقد استوليت على سهل چورلى قهراً قبل أن تكون خليفة، وسوف تتركه قهراً جعلك الله قصير العمر وليكن سيفك حساماً وليكتب على جندك الانكشارية ألا يخلصوا حذائهم ولا ثوبهم، ولتصب الواحد منهم ثلاثة أقدحة، ولتكن رواتب الجند جزيلة ولكنها عديمة البركة، ولتعلموا هيبتهم ولينقطع وجود جشهم فى الميدان وتذهب حماسهم للحرب، أما أرباب

الزعامة والتميز فلا كفوا عن نزاعهم وشجارهم وليبتلى الأبناء بما صنع الآباء. وبهذا من كلامه دعا الله على جند العثمانيين كافة. وبينما كان سليم يمضى به إلى «ديما دوقيا» أسلم با يزيد الروح فى مكان يسمى «هاوسه» ولا نعلم السن الذى مات فيها - رحمة الله عليه - وفى عام ٩١٨هـ استقل سليم بالسلطنة.

### «استقلال الأمير سليم بالسلطنة عام ٩١٨هـ»

ولقد بويغ سليم فى موضع يسمى «يكي باغچه»، فى استانبول وفى الوقت الشافى فى يوم مبايعته بالسلطنة بناء على تقرير حليمى جلى لبس ثوب الدرؤش فى القصر ثم زار مسجد أبى أيوب الأنصارى ثم مسجد محمد الفاتح، ثم دخل حجرة تسمى «صولاقلر اوده سى» فى الحجرات القديمة، فقال كل من فى الغرفة من الأوده باشى مرحبًا بك، وسألهم عن أحوالهم وتناول الإفطار وأثناء الكلام قال لهم هل تريدوننى سلطانًا محاربًا أم معتكفًا متفرغًا للدعاء، فقال بهى ده ده ينبغى أن نقوم بحملة لكى يحلل الله العلوقة التى نأخذها. لقد أحاط بنا الكفار والعجم من جهاتنا الأربع، ولم تبق لنا ولاية وينبغى علينا القتال توأ. فقال سليم: إذا انشيتم عن هذا القرار فقد انشيتم عن الإيمان فأقسموا له وأقسم فمضى سليم ده ده ووصل أمام الباب السلطانى ونفخ فى النفير حسب القانون البكتاشى فأخذ صحاف النقود من البوابين وعند الباب الأوسط نفخ فى النفير مرة ثانية وحظى بإنعام من كتخدا البوابين، فلما بلغ باب الآق أغا نفخ فى النفير مرة ثالثة وتسلم منه منحة مالية، وأثناء وقوفه لاحت له الفرصة ليتقدم منها إلى خصيان الداخل بغير تكلف وذهب إلى أحدهم فلما رحب به تقدم سليم مباشرة نحو الغرفة الخاصة فالأسرة التى تبرى فيها سليم أسرة عريقة وجلس على السلطنة وكأنه الشمس بين النجوم واستقر عليه كأنه سد الإسكندر، ورأى أحد أغوات الخاصة أن درویشًا تسلل إلى الداخل وجلس فوق العرش السامى، فقرع الناقوس الحديد فهرع أربعون من رجال الغرفة الخاصة يحملون البالطة وعندما هجوموا عليه كشف سليم عن ذراعه. فلما شاهدوه عرفوا أنه الأمير سليم لأن كثيرًا من الناس لم يشاهدوا سليمًا قط، ولكن الخدم الذين يعرفونه شاهدوه، وقالوا: أيها الأمير سليم. وعفروا جيئتهم على

قدمه، وبإيعوه في حجرة (قرق خاص اوداسى) أى حجرة الأربعين الخاصة. جلوس السلطان سليم عليه الرحمة والغفران:

### يا من ماتت قلوبهم إن وصال مولانا سليم لقلوبهم السقيمة دواء

وبإيعه على هذا النحو أركان الدولة: شيخ الإسلام، وسبعة وزراء، والعلماء، وصلحاء وأعيان الدولة كافة، وعرف بالخبر من ينتظرون البيعة فى (يكى باغچه) مقدم الناس زرافات زرافات وأثناء مبايعة السلطان سليم جاء دور فرقة الإنكشارية فرأوا من فى الحجرات القديمة أن من أكل معهم فى حجراتهم وحل اليمين هو السلطان نفسه، فطاشت عقولهم، فقال لهم: أتوفون بعهدكم؟ فقالوا: نحن على عهدك يا مولانا. فلنمض تواء إلى اسكودار، ولنخرج من باب أدرنه فجددوا العهد.

وفى اليوم التالى تمنطق سليم بالسيف فى مسجد أبى أيوب الأنصارى، وعاد إلى القصر فى موكب عظيم، وقال إن لدى سبع حملات، وجعل المنادين يقولون بذلك، وكان الصدر الأعظم أنشد ببرى باشا وأسس سرادقًا خارج أدرنه وآخر خارج نطاق أسكودار وأرسل الرسائل إلى جميع الملوك، وخشى الكفار وأهل الضلالة من سليم، فأرسلوا نفائس الهدايا مع السفراء وجددوا السلام.

كما كتب رسالة إلى الشاه إسماعيل قال له فيها: «لقد توفى أبى با يزيد (الصوفى) وأنا من غَلَبْتُكَ فى أصفهان ثلاث مرات، ولقد عقدت العزم على أن أُغَيِّرُ عليك انتقامًا لتلك اللطمة التى لطمتنى إياها».

ولما بلغت هذه الرسالة الشاه إسماعيل قال: «يا لله فى العام الماضى لاعبنى الشطرنج سليم الدرويش وغلبنى. لقد كان سليم أمير آل عثمان. ومزق الرسالة قائلاً: واويلاه.

هذا ما نقلته أنا الفقير كثير الذنوب بمحضر من الشيوخ عن قوجه حلیمی جليبي فى سيرة سليم خان وهذا صحيح لأنه كان من أقران سليمان خان ومع والدى - رحمه الله - وقد وقف على تلك الأمور وقد استمعوا له ولم يعارضوه فى شيء مما نقله.

## ذكر حرب السلطان سليم

### مع الشاه إسماعيل الصفوى فى چالديران

فى عام ٩٢٠ خرج السلطان سليم على رأس جيش عظيم لقتال الشاه فى إيران ووصل إلى صحراء چالدر، وهناك التقى الجيشان. وقبل بدء القتال أرسل ابن ذى القدر والسلطان الغورى مدداً من الجيش إلى الشاه إسماعيل، وقد فتح جند الشاه ثغرة فى جيش الإسلام، ودخلت السيوف ساقه<sup>(١)</sup> جيشنا. لأن العجم ملأعبو السيوف، ولهم البراعة فى استخدامها، وفى هذا الموضع كان الفريقان قد اتفقا على عدم إطلاق المدافع والبنادق فتذكر السلطان سليم، وقال: عندما كنت فى أصفهان لعبت الشطرنج مع الشاه بقطع النظر عن الملكية، ولما تغلبت عليه لم يف بالعهد، ولطم وجهى ناكثاً عهده، وهذا هو أوان نقض العهد وأمر بإطلاق المدافع وكان إياس باشا رئيساً للإنكشارية وسرعان ما دمرت المدافع القزلباش عن آخرهم، ودارت الدائرة عليهم كافة، وفى سبع ساعات لم يبق فى أرض إيران من الجند أحد، وبينما كان الشاه فى فراره مع سبعة فرسان رآه امرأته وقالت له: جُعِلْتُ فداك ياسليم لقد شئت شاهنا ودفعته للفرار فذلك بسبب من فرارك. لكن الشاه أحسن الشاه إليها، وعفى عنها ولا حاجة لنا إلى وصف معركة چالديران لأنها مشهورة، وقد وقعت فى الأسر زوجته «تاجلى هانم» مع أكثر من مائتى جارية من جواريه الملاح. وعاد سليم إلى الأستانة بمال قارون.

وبعد ذلك اتخذ من أماسيه مشى له. إلا أنه لم يكن غافلاً عما أعده العجم من عُدَّة فخرج ابن ذى القدر علاء الدين من مرعش على رأس جيش قوامه سبعون أو ثمانون ألفاً. ومضى به إلى مصيف كوكسن وعين السلطان سليم (٢) باشا قائداً. وانتشب قتال عظيم وقتل علاء الدولة مع أبنائه وحمل من أسرته سبعين أسرى مكبلين بالحديد وبينهم شقيق جدنا أحمد بك سالى بك وأرسلوا إلى السلطان الغورى فى مصر، وعندما رأى السلطان الغورى الأسرى على هذه الصورة، ورأى رأس علاء الدولة ورءوس

(١) الساقه: المؤخرة.

(٢) بياض بالأصل.

أبنائه، أدرك أنه أمام عدو قدير وأن الدائرة ستدور عليه وأن العثمانيين يريدونه بالسوء. وأطلق سراح الأسرى كما أطلق سراح عمنا، ومضى إلى القدس الشريف، وصرف نظره عن رفع العلم ودق الطبل، ووجد في القدس قبر (طور زيتا) فرممه.

وبسبب ظلم الجراكسة النحس وطغيانهم في مصر فإن أذاهم لم يقتصر على الرعايا والعامّة بل امتد ليشمل من يقال لهم فلان بن فلان وعيالهم ووكالاتهم ونالهم من الجند ذوى الشقاوة ما نالهم، وقدم من مصر كثير من أولياء الله إلى الشيخ أبى السعود الجارحى والشيخ مرزوق كفافى يشكون، كما تشاور العلماء والصلحاء فى الأمر، وقالوا: إذا مضينا من مصر إلى المغرب وجدنا قوم سوء، وإذا مضينا إلى الهند كانت بلاداً بعيدة، وإذا مضينا إلى العجم وجدنا فى مذهبهم شبهة، وإذا مضينا إلى الأكراد فدولتهم لا ثبات لها، فهلموا لنذهب إلى آل عثمان فإنهم مؤمنون موحدون، كما إنهم يحبون العلماء والصلحاء والمشايخ، وهم أهل الشرع وأصحاب السيف، وحيثما مضوا كان النصر لهم، هلموا لنمض إليهم. فتم اتفاقهم على ذلك وقرأوا الفاتحة وهتف كل من الشيخ أبو السعود الجارحى والشيخ مرزوق كفافى قائلاً: تعال يا سليم! تعال يا سليم!

وكان السلطان سليم فى مشتهه بأماسيه مع وزرائه يتشاور، فقال الطواشى سنان باشا ويونس باشا: إننا سمعنا من قال تعال «يا سليم ثلاث مرات وقيلت صراحة. فقال السلطان سليم: عندما كنت فى سياحتى بمصر مع حلیمی قال أبو السعود الجارحى ومرزوق كفافى بالمكاشفة: يا سليم روح اجلس على تخت ابوك. . وإذا ما دعوناك إلى مصر فأقدم» هذا ما قالاه. وهذا لصوت الذى وصل إلى مسامعكم هو كلامهم. هيا نعد العدة على وجه السرعة.

### قتل السلطان سليم الأول لإخوته وأبناء أخوته

وبينما كانوا يعدون العدة لغزو مصر، جاء المستغيثون إلى سليم وقالوا: لقد شق أخوك قورقود من ناحية وأخوك أحمد عصا الطاعة من ناحية أخرى، وضاعت منك الولاية، فاتجه سليم نحو السلطان أحمد وفى بورسه بجوار يكي شهر<sup>(١)</sup> حاربه، وفى

(١) تقرأ بنى شهر.

هذه المعركة سقط الأمير أحمد عن فرسه وحُمِلَ إلى السلطان سليم أسيراً. ولكنه لم يعف عنه، فأمر بقتله خنقاً في حجرته، ودفن في بورس في جوار السلطان مراد الثاني، وفر الأمير مراد ابن الأمير أحمد من هذه المعركة إلى أردبيل، وطلب اللجوء إلى الشاه إسماعيل، ومات في العام الثالث، وقبره في أردبيل، ومضى الابن الأكبر للأمير أحمد، والابن الأكبر للأمير علاء الدين إلى السلطان سليم. فشملمهم بعطفه وماتا الاثنان بالطاعون في اسطنبول وبها دُفِنَا، ولقد اعتقل السلطان سليم كلا من ابن أخيه الأمير محمد والأمير محمود وأبنائهما الكبار: الأمير موسى، والأمير أورخان، وعثمان ابن السلطان على شاه. كل هؤلاء اعتقلهم السلطان سليم أثناء حربه مع أخيه الأمير أحمد، وأمر بهم فقتلوا عن آخرهم، ودفنوا جميعاً في بورس بجوار أورخان غازي، لأن هؤلاء في عهد السلطان بايزيد ولى يعتبرون ملوك الطوائف، وكان لهم على مر الأيام أوضاع وأعمال شاذة، وكانوا يتحاربون ويتناحرون، وكان الرعايا والبرايا أشتاتاً وفي أسوأ حال، وضاق الناس بذلك ذرعاً فاتجهوا إلى العجم وأصبحوا لهم أتباعاً.

ثم اتجه السلطان سليم لمحاربة الأمير قورقود؛ فقام قورقود وجمع حوله عدة آلاف من الرعا والسفلة، إلا أنه انهزم آخر الأمر، فهرب مع نائبه ودخلا كهفاً في مقاطعة تكة. ولكن الجوع أجهدهم، فأعطوا رجلاً تركياً جواداً لبيعه ويشترى لهم خبزاً وشعيراً، وخرج الرجل بالجواد لبيعه إلا أنه قبض عليه وسأله من أين جاء بهذا الجواد؟ فقال: في هذا الجبل سيدان باعاه لى ودلهم على الغار، وفي هذا الوقت قبض على قورقود ونائبه وأرسلوا مقيدين إلى سليم إلا أنه لم يعف عنهما وأمر بقتلها.

وحُمِلَ جثمان الأمير قورقود كذلك إلى بورس ودفن إلى جوار أورخان غازي، وبعد ذلك أصبحت الدولة خالصة له.

واستقدم سليم الأمير سليمان من كَفَّه إلى أدرنه وأشركه في الحكم، وقال له تدبر أمرك وأسند له تدبير أمور الدولة وولاه على أدرنه وفوض إليه كل أمر، فقد كان الأمير سليمان رشيداً عاقلاً، وقال أحد أولياء الله: يا سليم إن إخوتك لا خير فيهم ولا جدوى منهم، وينبغي أن يخلفك سليمان على عرش الدولة.

وحقيقة الحال أن سليماً لم يعقب ولدًا سوى سليمان، ولقد ولد في طرابزون كما ولد أبوه. ووالدته مدفونة الآن في جامع خنكار في بوزديه.

ولقد ولد الأمير سليمان عام ٩٠٠ على رأس المائة، وبذلك أصبح مرموق المنزلة؛ فقد قال النبي ﷺ: «إن الله يبعث لهذه الأمة برأس كل مائة عام من يجدد لها دينها». ولذلك قتل سليم جميع أخوته لأنه رأى أن سليمان هو الأصلاح للدولة. ومضى سليم إلى بورسه لزيارة «أمير سلطان» فقال: السلام عليكم يا آل القبور. فسمع صوتاً يقول: «و عليكم السلام يا صاحب السيف والقلم. . ادخلوا مصر إن شاء الله آمين». . وتردد هذا الصوت من القبر الشريف. فأخذ العجب مأخذه من جملة الحضور، وفي الوقت عينه قال كمال باشا زاده للسلطان سليم: لقد بُشرت يا مولاي بفتح مصر.

### ذكر حرب السلطان سليم الأول مع السلطان الغوري

#### في طريقه لفتح مصر

عقد سليم نيته على غزو مصر، فتمنطق بالسيف في ضريح أمير سلطان في الأستانة، وقرأ كمال باشا زاده الفاتحة ومسح وجهه بيده ثم أدى الزيارة، ومضى سليم إلى قصره، وهناك جمع جميع علماء الترك وأهل الفتيا على المذاهب الأربعة وطلب منهم أن يفتوه في فتح مصر وكان الطواشي سنان باشا الصدر الأعظم آنثذ، وعرض أربعين فتوى كانت قد جاءت من مصر، وقرأ هذه الفتاوى علماء الترك وبينوا ما جاء فيها؛ وقالوا: ما دام علماء مصر وكبار أولياء الله فيها أفتوا بوجوب قتال الجراكسة فنحن أولى بهذا القتال.

أما مضمون الفتوى التي أصدرها فهو:

ما الواجب فعله تجاه من يدعى أنه من ملوك الإسلام، وأنه خادم الحرمين الشريفين ومكة والمدينة، ومع ذلك ينضم إلى القزلباش الذين يسبون الخلفاء الراشدين، وحينما يحاربهم من يريد منع هذا السب عن الخلفاء الراشدين يؤازرهم صاحب مكة والمدينة ويرسل العون إلى القزلباش، وينبغي منع هذا السب واللعن، وأن يحمل بالسيف على مثل هذا السلطان الذي يمنع هذا السب فقتاله فرض ويجب أن يخلع لأن مثل تلك

الإمامات غير جائزة، ومن يتابع الروافض على ذلك ينبغي إهدار دمه والإغارة على مملكته، وينبغي قتله لا أسره، ويحرم الزواج من نسائه، ولا يجب اتخاذهن جواري وينبغي محاربهته كما ينبغي تقويض ملكه.

فحمل سليم سند الفتوى وفي الحال بعث باثني عشر رسولا إلى السلطان الغورى بمصر؛ فدخل هؤلاء الرسل إلى ديوان السلطان الغورى، فقرأ السلطان الغورى رسالة السلطان سليم وفتاوى رسول الله ﷺ ثم قال: لقد سبق للسلطان سليم أن قتل علاء الدولة بن ذو القدر وسبعين من ابنائه، وأرسل إلينا أسرى مكبلين والآن دماؤكم فداء لهم، ولقد أرسلكم إلى بحجة أنكم رسل، وأمر بقتل عشرة منهم وأطلق سراح اثنين، وسلمهم خطاب الأمان وفيها يقول: ما دمت حياً لن أمكنك من دخول مصر وليكن اللقاء في سهل مرج دابق عند حلب، وإن كنت رجلاً تعال إلى ميدانى.

وعندما تسلّم سليم رسالة الغورى هذه استشاط غضباً، فقال علماء الترك: لم يقتل سفراء الكفرة قط على مر العصور، وإنما قُتل سفراء المسلمين فقتل الغورى حلال. فانهض يا مولانا لساعتك وخف إليه ولا ترفع يدك عنه.

ووكل السلطان سليم تدبير أمور الدولة إلى قره بيرى باشا فى اسطنبول وأمر بأن تكون إمارة الجيش للأمير سليمان. ومضى بالجيش من بروسه يطوى المراحل الواحدة تلو الأخرى، وفى قونية عَفَّرَ جبينه على عتبة سلطان العلماء ومولانا جلال الدين الرومى، وطلب المدد من روحانيتها، ثم بلغ دولة الرمضانية فى أذنه وهناك أقام، وبناء على رسالة من الشيخ أبى السعود الجارحى نزل ضيقاً على خليل بك الرمضانى، وقال له: «إن قدر الله أن تكون مصر لى أبقيت على دولتك»، وقد قدم سليم هذه المرة بجيش عظيم ومنح آل رمضان جميع أوقاف وكل ما يملكون ومالهم من أقاليم ما عدا إقليم طرسوس، وجعل ابن رمضان طليعة جيشه وجعل فى مقدمة جيشه عشرين ألف جندى من صفوة الجند، وإلى طرسوس وصل من اسطنبول أكثر من ثلاثمائة سفينة مما يعرف بـ «بدرغه» ومائتا سفينة مما يعرف بـ «شايقه» و«قره مُرسَل»، و«غليون» مع قدر

عظيم من الجند والعدة والعتاد، وبلغ نبأ ذلك السلطان سليم فسر سروراً ما بعده سرور؛ فدعا الله بالخير ليبري باشا الذي فوض إليه النظر في أمور الدولة بالأستانة ووصل الخبر من أحد رؤساء بوابي الباب العالي إلى الريان مصطفى بلاق باشا. ولما وصلت الأوامر إليه بالأ يفارق ساحل البحر هذا فقام من طرسوس وبلغ ميناء الإسكندرونة، وهناك ألقى مرساة سفائه. كما تحرك سليم من أدرنه على رأس جيش يتألف من ثمانين ألف جندي من خيرة الجند، ودخل حدود مصر، ذلك أن أذنه كانت في ذلك العصر حدود مصر، وغادرها إلى سهل مرج دابق بالقرب من موضع يسمى كلس وهناك أقام. فقدم عليه درويش وقال له: إذا شئت لنفسك أن تكون شجاعاً مظفراً فاعلم أن داود بأمر الله حارب جالوت في سهل مرج دابق هذا، وفي الموضع الذي انهزم فيه جالوت ضريح النبي داود - عليه السلام -، وقبل أن يقدم الغوري وكل هذا الضريح ظهر حتى تشاهد صنع الله، ففى هذا الموضع تعلق نظر الله - تعالى - وأنزل الله على حبيبه قوله: ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَأَتَاهُ اللَّهُ الْمَلِكَ﴾ [البقرة: ٢٥١]، فانطلق لتوك يا سليم لهذا الموضع وكن سد الإسكندر. وغاب الدرويش عن النظر، وسرعان ما قام سليم من هذا الموضع وعسكر عند مقام داود في مرج دابق وأوقف الحراس في الجهات الأربع ثم راح في ثبات عظيم.

### أول هزيمة لحقت بالغوري على يد السلطان سليم الأول

وفي صباح اليوم التالي قدم الغوري بجيش عظيم ووقف لملاقاة العثمانيين، وقام بترتيب سبع فرق من الجنود، وكان جيشه مؤلفاً من عشرين ألف جندي من حملة العصي وعشرين ألفاً من مقيمي الخيام وعشرين ألفاً سائسٍ وعشرين ألفاً فلاح من الحُرَّاس حاملي العصي، واثني عشر ألفاً فارسٍ من خيرة الفرسان، وأربعين ألف فارس وثمانين ألفاً من أغوات الميرميران وأمرأء الشراكسة، وعلى حد قول تواريخ الشهاب، وعلاوة على سائر الرعاع مائتين من حاملي السيوف. وواجه الغوري بهؤلاء الجند السلطان سليم في مرج دابق. أما العثمانيون فكانت عدتهم سبعة وثمانين ألف جندي.

كأن قمر يوسف صعد إلى برج الميزان  
وقد كشفت زليخة في السحر عن الكنز للعيان  
ومن السحر ظهرت الأنوار الإلهية  
ومن القبة الزمردية قلنسوة ذهبية  
وامتطى جميع الملوك سهوة فرسهم  
وامتطى الشجعان بَبْرَهُم<sup>(١)</sup> وغمهم

وقد اصطفت الصفوف وأعد كل كمين والتحم الفريقان، ودام القتال سبع ساعات على نحو لم يكن في هذا السهل قتال مثله لداود مع جالوت، ولا تُطيل في القول فقد هبَّ نسيم النصر صَوْبَ سليم، وقد كان جميع جند الغورى حصاد السيف، أما البقية الباقية منهم فتعلقوا بأذيال الفرار مع الغورى قائلين (عينك يا مصر) ويقول بعض المؤرخين: إن الغورى قتل في هذه المعركة ولكن هذا ليس بصحيح فمن المحقق أنه عاد إلى مصر وحشد جيشاً. ومكث سليم الأول في سهل مرج دابق عشرين يوماً وجمع الأموال والغنائم، وكان الجمالة والحمارية يلحقون بخدمته ويتلقون أجرتهم؛ فأثروا من كثرة ما كانوا يتلقون من أموال من السلطان سليم. ودفن جنود الغورى وأرزاقهم في الأرض قائلين أن الصباح أم المعارك، وجاء جند آل عثمان واستخرجوها بعد قتل أصحابها، وأصبح جميع المتسولين في غنية عن التسول.

ثم توجه السلطان سليم إلى قلعة عزز وأقام فيها، وقال جند الإسلام إن لدى الجراكسة أموال كثيرة فبحث جند سليم على جند الغورى وقتلوه، وأخذوا أموالهم، وعلى هذه الصورة فإن وزير الغورى السابق للشام سينال وكُرتباى وقوده باى ووزير الشام الحالى جان بردى ملُّوا حياتهم وفروا هاربين، وفر خيرة بك الحاكم السابق حلب، فر منها ومسح وجهه بالركاب السلطاني لسليم وأصبح عبداً مطيعاً للسلطان

(١) البَيْرُ: النَّمْرُ.

سليم فأقسم له سليم كذلك أنه إن صدقت في خدمته وقدر الله لسليم فتح مصر جعله حاكماً مستقلاً وأعطاه جنداً بقدر ما يطلب وسوف ينظر في هذا الأمر وأغراه بذلك وأغراه وأغندق عليه العطاء وأنعم عليه بإقليم كُستنديل في بلاد الترك وقدم خيرة بك عظيمًا من الخدمات إلى السلطان سليم أثناء توقيفه في حلب الشهباء في طريقه لفتح مصر وأقنع علماء حلب وصلحاءها وأئمتها وخطباءها ومشايخها وجنودها قاطبة بأن يسلموا مفاتيحها إلى السلطان سليم، ونالوا جميعاً نوال السلطان، وفي عام ٩٣١ قُتحت حلب صلحاً وإيالتها أُسندت إلى قره جه باشا ومولويتها إلى جوملكجي زاده كمال جليبي.

ومكث السلطان سليم في قصر الحاكم بحلب مع جيشه العظيم المظفر، وزار ضريح النبي زكريا في الجامع الكبير وأضرحة باقى كبار أولياء الله والتمس المدد من روحانيتهم، وبعث برسائله إلى الولايات في جميع الجهات لاستمالة الناس إلى جانبه فجاء له بمفاتيح القلاع وأعلن أهالي الولايات طاعتهم وولاءهم له وهذه الولايات هي:

مرعش، وعيتاب، وريحانية، والمعرة، وروحه، وبيره جيك، وحران، وكلس، وعزز، وحلب، وحماه، وحمص، ومدق وشجر، وأنتاكية، ولازقية وجبلية ومارقاب وحصين، وطرابلس، وبيروت وصيدا، وعكة، وصفد، والرملة، وزيدانية، وبعلبكه، شقف وطربية، وفلسطين، ولجون، وعجلون، ونابلس، والقدس، وغزت الهاشم. وقد فتحت هذه القلاع الحصينة - وهي قريب من مائة وأربعين - صلحاً، وانقاد أهلها وأطاعوا، كما خضع له بدو الصحراء مثل آل بنى سلامة، وآل رشيد، وآل وحيدات، وآل بنى عمورى، وآل بنى زهد، وآل بنى رباح، وآل بنى تراي، وآل بنى سالم، وهم سبعون قبيلة. كما خضع له جميع الدروز والسيمانية واليزيدية والمروانية والهوبارية والمعروفية والأقلية والقزلية، والشهابية، والشهبازية، والنصيرية، والتاتكية وجميع القلاع الواقعة في جبال بيروت وصيدا والتي كانت في حوزة الفرق الضالة وهؤلاء جميعاً مسحوا جبينهم على حافر فرس السلطان سليم.

وبدأ سليم يتلو قوله - تعالى - : ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ {الشعراء: ٨٩}، ثم غادر السلطان سليم مدينة حلب ومضى إلى خانتيمان ثم أسند قلعة المعرة إلى أمير اللواء الغنى عطا، واستقبله أهل حماه - حماها الله - وقدموا له فروض الطاعة، وسلموه القلعة وعين عليها أمير اللواء طورخان بك، ثم استقبله أهل قلعة حمص قاطبة بالهدايا، وأنعم بها على أمير اللواء إحتِمَان زاده ومنحت طرابلس الشام إلى قاسم باشا وصدر الأمر للأسطول العثماني بالقدوم إلى طرابلس فمضى سليم إلى دمشق ولما اقترب منها قدم خيرة بك وجان برّدى وزير الغورى على دمشق وأهل دمشق فروض الطاعة للسلطان سليم وأصدر عفوه عما فرط منهم، وأسند ولاية دمشق ثانية إلى جان برّدى وتصدق على شيخ المولوية على مُنْلا ودخل سليم دمشق فى موكب عظيم وبسطوا الدياج والمزركش فى كل ما مر به من طرق.

### فتح قلعة دمشق

فُتِحَتْ قلعة دمشق فى عام ٩٣١ ونادى الدلالون بذلك، وأصدر سليم فرمانًا بإقامة القلعة الداخلية لدمشق. وحينما كان سليم أميراً ترك التاج والعرش فى طرابيزون وخرج للسياحة واستخلف عليها مير اللواء صارى أرسلان، وأمره بإقامة قلعة حصينة لدمشق، وبعد أن فتح سليم مصر، غادرها إلى دمشق، ووجد أن القلعة تم بناؤها؛ سماها باسم بانها صارى أرسلان، والقلعة الداخلية فى دمشق هى قلعة سليم التى بناها صارى أرسلان، أما القلعة الخارجية فهى لمعاوية بن أبى سفيان.

وجاء الحمام الزاجل من مصر إلى دمشق حاملاً الرسائل، وعندما وصل إلى جان بردى أخذ ما يحمله من رسائل وتوجه بها إلى السلطان سليم وبقراءتها جاء فيها أن السلطان الغورى لحقته الهزيمة فى مرج دابق وجميع الفارين من المعركة نفقت جمالهم وخيولهم ظمأ فى صحراء قطية وأم الحسن، أما الناجون منهم فقد قتلهم البدو، وتأتى للغورى أن يعود إلى مصر فى ستين من جنده وأسند قيادة الجيش إلى طومان باى. ولما قال جان بردى: أن الجند كتبوا هذه الرسالة صباحاً ووصلت الشام وقت العصر

أخذ العجب مأخذه من السلطان سليم، والآن يطير الحمام من ميناء إلى آخر في مصر حاملاً الرسائل. ثم حشد سليم جنده وعدته وعتاده وكان تفقده لهم يوماً بعد يوم.

### فى بيان قبر محيى الدين بن عربى

واقترضت حكمة الله أن كان السلطان سليم فى مشتاه فى دمشق وبينما كان يتصفح كتاباً مع كمال باشا زاده وجد فى رسائل محيى الدين بن عربى عبارة (إذا جاء السين دخل الشين ظهر بمرقد الميم) وهذه عبارة ألفاظها من الدرر والمقصود بالسين السلطان سليم ودخول الشين بمعنى دخوله الشام أى دمشق، والمقصود بالظهور بمرقد الميم هو ظهور قبر محيى الدين بن عربى، هذا ما استتجاه من العبارة.

وأنكر سليم أن تكون هذه الرموز بحساب الجفر<sup>(١)</sup>، ومضى فى الحال إلى زيارة محيى الدين بن عربى، وقال لتكشف عن قبره ليبدو للعيان فسأل ذوى السن من رجال دمشق إلا أنهم لم يقتدروا على أن يوردوا خبراً فى ذلك. وقال بعضهم: يفهم من هذه الرموز أن قبره فى أطراف دمشق ولما كان قبره غير معلوم حزن السلطان سليم حزناً لا مزيد عليه، وفى تلك الليلة رأى فى منامه أن محيى الدين بن عربى قدم عليه وقال له: كنت فى انتظار مجيئك إلى الشام، مرحباً بك لقد تيسر لك فتح مصر وأنا أرف إليك البشرى بذلك، فامتط صهوة فرس أسود فى الصبّاح وابتحث عنى وارفع عنى تراب المذلة وأقم لى ضريحاً فى الصالحية ومقاماً وجامعاً ومبرةً ومدرسةً ومكتب صبيان وحماماً وتكية ومحكمة وبيت للحاكم وأسواقاً صغيرة ونبعاً، وأجلب الماء فى جداول وعمّر الصالحية فامض فإن الله يسّر لك.

وهبّ سليم من نومه وطلب أن يُسرج له فرساً أسود سريع العدو ولكن قيل له ليس فى الحظيرة فرس أسود، فقال: يجب أن تبحثوا وتجثوا هذا الفرس، وألح فى طلبه، وأخيراً وجدوا برزون جموح أجرب فالتف حوله الخدم وروضوه ليكنّ ثم أسرجوه.

(١) الجفر: علمٌ يبحث فيه عن الحروف من حيث دلالتها على أحداث العالم.

وامتطى صهونه سليم دون أن يكون له لجام، وصهل واشتد عدوه وبلغ بالسلطان الصالحية واعتلى كومة من القمامة وجعل يصهل إلى حد لم يطق سليم صهيله، فنزل عنه وظهر له نعش حجري كبير فكفَّ البرزون عن الصهيل كأنما أتم خدمته ومضى نحو سليم وظل صامتاً ولسان حاله يقول هذا قبر محيي الدين فنظر سليم في النعش الحجري، فإذا به كتابة بالخط الكوفي هذا قبر محيي الدين.

وفي قديم الزمان لم يدرك المنكرون مزايا مؤلفات الصوفية فكفروه وكوموا على قبره مزبلة من تراب المذلة، فظل قبره مجهولاً، فجمع السلطان سليم في الحال كل ما استطاع سبيلاً إلى جمعه من المعمارين والبنائين ولكي يشرف بخدمة الشيخ حمل بنفسه ما في المزبلة من أحجار كما حملها جميع جنده، وفي طرفه عين طهروها وبناء على ما سلف ذكره ورآه سليم في منامه أقام خانات مغطاة بالرصاص وجامعاً ومبرّةً ومدرسة ومكتباً للصبيان وضريحاً ومحكمة ودار ضيافة ومستشفى على نحو ما ذكر تفصيلاً في وصف دمشق. وبينما كان السلطان سليم في مشاته في دمشق اشتغل بعلم الجفر وأنس بمن لهم علم به، وفي حديث له معهم ذات يوم سأل الشيخ ناصر الطرسوسي قائلاً:

أيتيسر لي فتح مصر؟ فأجابه الشيخ الطرسوسي قائلاً: بشراك يا مولاي.. لقد شهد الإمام على - كرم الله وجهه - أنك سوف تملك مصر فقد قال: لا بد من سليم آل عثمان يملك الروم والعجم ثم يملك جزيرة العرب.. وهو يقصد بجزيرة العرب جزيرة مصر بكلامه الذي كالدرد النفيس. ومصر تسمى جزيرة لأن أحد ملوك القبايطة وهو طوطيس أجرى مياه النيل إلى بحر السويس فأصبحت مصر جزيرة. ولذلك تسمى مصر الجزيرة، وإن شاء الله سوف تفتح مصر بناء على كلام عليّ - كرم الله وجهه - وستكون أول خادم للحرمين الشريفين من آل عثمان، وبهذا بشره ناصر الطرسوسي بفتح مصر، كما أن عالمًا قال: إن القرآن أعلن أنك ستفتح مصر، وهذا ما استنتجه الإمام عليّ - كرم الله وجهه - وبلغه للإمام الحسين فبلغه الإمام الحسين إلى زين العابدين، وبعد ذلك بلغه إلى السرى السقطي، ومنه إلى الجنيد، وإن كلام القرآن الكريم له الدوام إلى يوم القيامة.

ولقدمك إشارات ورموز ﴿ مِنْ لَدُنَّا عَلِمًا ﴾ {الكهف: ٦٥}، وأهل الذكر مآذونون بإعلان هذا وليست فيه رخصة، والآية الشريفة هي: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ {الأنبياء: ١٠٥}. فلفظ «ولقد» يساوي مائة وأربعين وكذلك عدد لفظ سليم وهو إشارة إلى سليم.

ولفظ «ذكر» يساوي تسعمائة وعشريناً و«من بعد الذكر» أى بعد تسعمائة سوف تكون فاتح مصر. «أن الأرض يرثها» ولفظ أرض بدون تعريفه باللام عندما يذكر يشير إلى أرض مصر، كما أن «أرض» بال تفيد الإرادة: أى أن هذا المعنى يتقرر بناء على قاعدة علم الجفر.

«عبادى الصالحون» يعنى أن الله أعدك من عباده الصالحين، وسترث مصر وحسبك هذه البشرى، امض راشداً إن مصر لك. ودعى الله أن يعينه وينصره. فقال سليم ثانية: إلى كم تدوم سلطنتى؟ فردّ قائلاً: لا أعرف سوى لفظ جداً. لا يعلم الغيب إلا الله. وقرأ الفاتحة ومسح وجهه بكفه.

ولو أن لفظ (جدا) يساوي ثمانية. فإن فتحه لمصر ووصوله إلى اسطنبول سلطنته قد دامت ثمانية أعوام، وهكذا علم الجفر علم خفى وصحة هذا الخبر: أن سليم أمضى الشتاء فى الشام بمشقة وبدأ ماء الرحمة فى الجريان، وترك جند قوجه بيدرمان فى الشام بجانب جان بردى وكوز لجة قاسم باشا وقطع المنازل وطوى المراجل حتى بلغ غزة بعسكر الإسلام، ومن الجنوب وصل سليم إلى نابلس ومنها إلى القدس، وزار الأنبياء وطلب المدد من روحانيتهم وغلب على جبل الخليل وزار جميع الأنبياء.

### فتح قلعة غزّت الهاشم صلحاً

ثم استراح فيها سبعة أيام، وخضع جميع البدو له ودانوا له بالطاعة، وقبّل قدمه بنوزهد وآل عمور وآل رشيد وآل رباح وآل معان وآل شهاب وآل تُرابسى وآل خرفوش وآل حبش وآل سعيد وبنو إبراهيم وبنو السوالم وبنى عطية وبنو عمران وبنو حوالم وبنو جوران وبنو البُصرى وبنو جعفر ومشايخ نابلس وصفد وعكة والرملة وفلسطين وغزة

والقدس والخليل والكرك والعقبة وصقر وأتباعهم ونال كل منهم نصيباً من إحسانه، ودانت له بالطاعة جميع العشائر والقبائل، وتعهدوا جميعاً بأن تطيب أنفسهم بخدمته، ولكى يجتاز صحراء أم الحسن وقطية أمدوه بأربعمائة ألف جمل يحمل ماء، ولما غادر غزة ووطأت قدمه صحراء مصر والعظمة لله، فقد هطلت غيث الرحمة، وإن من تخوفوا من الظمأ فى الصحراء ساءهم أن يهطل المطر كأنه سيل فأصبحت أرض الصحراء من طين.

ولما وصل سليم خان يونس قتل يونس باشا وبنى بماله قلعة خان يونس، وطوى الجند الأرض طياً ووصل العريش وفى ذلك الموضع تقدم الصدر الأعظم سنان باشا وخليل الرمضانى بك وخيرة بك الشركسى وعبروا صحراء قطية وأم الحسن وبلغوا الصالحية فظهر رعاع الشراكسة فى حدائق النخيل إلا أن السيوف حصدتهم حصداً وأحضر البدو أكثر من ألف شركسى وأعملوا فيهم السيف بعد أن سلموا أسلحتهم لبدو الصحراء، ثم مضوا إلى أم القرين وأرسلوا دليل الجراكسة إلى حضرة السلطان سليم فقال: هل لسلطاننا الغورى طاقة لكم فى صحراء بلييس، لا تغفل عن هذا. فأطلق سراح الأدلاء.

### حرب سليم مع الغورى وعاقبة أمر الغورى

والتقى الجمعان فى القرين بالقرب من بلييس ولم يستطع الجيش أن يرى الجيش الآخر الذى يقاتله من دوى المدافع والبنادق. واتفق أن هب نسيم فآثار غباراً كان حجاً بين الجيشين، ورأوا أن جنود الغورى صاروا فلولاً مستفرقة وأصبحوا من قبيلة «موتوا بأمر الله» فتحين الجنود العثمانيون الفرصة وشدوا عليهم وانقض عليهم طومان باى من جانب كما ينقض الذئب الجائع على الغنم، ودارت رحى الحرب من وقت الزوال إلى وقت الغروب، وما أشبهت هذه الحرب حرباً، وقرع الطبول، والتحم جند الفريقين فى معركة حامية الوطيس، والتفت الساق بالساق وانحلت الدروع. وفى هذه الليلة دفن من العثمانيين سبعة آلاف. وقد استبسل فى القتال خيرة بك والذى جاء مدداً للجيش العثمانى فى هذه المعركة، وهذا وارد فى تواريخ مصر، وعرفوا أن خيرة بك حليف العثمانيين، وفى صباح اليوم التالى دقت طبول الحرب وكأنها تقول: أين من يحتسى

كأس الحمام في هذه الحرب، واتفق أن حمل جميع جند الغورى على العثمانيين كأنهم بلاء أسود وكانهم قضاء مبرم، ودخل بينهم جند العثمانيين بكل أسلحتهم وأطلق الإنكشارية البنادق من ناحيتهم وبقوا في نار النمرود، فألقت المدافع ثلاثمائة وستين قذيفة فاسودت السماء والأرض بالبارود، ورأوا أن جند الغورى تقهقروا وقيل إنها خدعة منهم.

ورأوا أن قرار الجراكسة تبدل فراراً، وأصبح سهل بلييس كحديقة للزهر الأحمر مما جرى فيه من دماء، وإلى وقت الغروب كانوا كقصّاب يعود إلى كبشه وجعلوا يتلون آيات الذكر الحكيم ويدهم وسيفهم ملطخ بالدماء وهم عراة الأجسام، ومضوا إلى مقر سليم ونالوا منه العطاء، وظل غزاة المسلمين في مواضعهم مطمئنين وقالوا لسليم: لنحاصر مصر ولنغادر هذا المكان، إلا أن خيرة بك لم يقبل منهم ذلك وقال:

يا مولاي السلطان إن الجند الآن متعبون، لقد ألحقوا الهزيمة بالعدو مرتين، لا شك أن فتنة تثور في قلوبهم، وبذلك نثني سليماً عن عزم الحملة على مصر؛ واستراح عسكر الإسلام في بلييس ثلاثة أيام وشاء الله أن في هذا اليوم من أيام الحرب مات الغورى في جانب من ذلك السهل على سجادة وهو متوجه إلى القبلة. وقطع عنقه أحد الجراكسة كى لا يكون ذلك بيد عثمانى ولف جثته في سجادة ومضى بها إلى السلطان سليم واستقدم خيرة بك الجراكسة فقالوا: إنها جثة الغورى، ولم يتعرف عليه بعضهم لأن الجثة كانت بلا رأس؛ فقالوا: إنها ليست جثته.

ولكن بعد مرور سبعة عشر عاماً أوصى معلم مكتب في بلييس بأن يكتب على قبره «أنا الغورى»، وأدركه الموت والخاتم الذى فى إصبعه وجرح السيف فى ذراعه يثبتان أنه الغورى. وجملة القول أن الغورى فقد فى معركة بلييس هذه. وقال خيرة بك فى الجند إنه بلا رأس ولا عنق وآخر الأمر ولو العرش ابنه السلطان محمد إلا أن البعض لم يُقر ذلك، وقالوا: إذا ولينا فتى غريراً ناقص التجربة مثله فماذا تكون عاقبة الأمر؟ وماذا يستطيع أن يفعله تجاه العثمانيين يجدر بنا أن نختار طومان باى خليفة. هذا ما قالوه. ودارت الحرب بينهم شهراً فى مصر وكان النصر لأنصار طومان باى واستخلف طومان

باى دويدار ولقب بالملك الأشرف وفى ذلك اليوم خرج الناس جميعاً للصلاة ونشبت معركة ضارية مع السلطان سليم بالقرب من الخانكة.

إلا أن الجراكسة لحقت بهم الهزيمة ثانية، وتجدد القتال فى صباح الغد فى الخانكة ودام إلى العصر وأرسلوا إلى السلطان سليم قائلين: نحن لا نحاربكم بالمدافع والبنادق فإن هذه الحرب بإطلاق النار خاصة بالكفار، وذلك لأن الجراكسة لم تكن لهم طاقة بالمدفع والبنديقية أما إذا كان السيف يستخدم فى القتال فلا يمكن مواجهة المصريين لأنهم حقاً كالعجم فرسان يحسنون القتال بالسيف وبالرمح. والحاصل أنه منذ مجيء سليم إلى مصر خاض مع الجراكسة أحد عشر معركة من بلبس إلى أقصى مصر.

وفى نهاية الأمر نشب القتال فى وادى الريدانية أى فى سهل سبيل علام وكانت حرباً لا يشبهها حتى حرب علىّ - كرم الله وجهه - وقالوا: لقد تحاربنا طويلاً مع هذا العثماني ودارت الدائرة علينا، فلنقتل سليم وعاهدوا الله على ذلك، وبينما كانت الحرب دائرة الرحى فى سبيل علام بلغ طومان باى وكُرْتَبَاى و (١) باى معسكر الإسلام وظن طومان باى أن الصدر الأعظم خادم سنان باشا هو السلطان سليم ورشقه برمح فسقط عن جواده فقد كان سنان باشا بلا لحية كالسلطان سليم، وكان السلطان سليم يركب فرسه وعليه ثياب كتياب سنان باشا.

وظن كرتباى أنه وزير آخر للسلطان فأسقطه عن فرسه، وظن الثلاثة أنهم أسقطوا الوزير عن فرسه، فسلك ثلاثة وزراء الطريق إلى سليم وأصبح (٢) باشا صدر أعظم.

وقامت معركة فى وقت الغروب ومكث العثمانيون فى العادلية، ودخل المصريون جميعاً مصر وتحصنوا فيها، وضرب العثمانيون عليهم الحصار ودان لهم بالطاعة جميع رؤساء قبائل العرب ولم يحضروا حبة من غلال وأحاط جند من العرب بالمدينة من جوانبها الأربعة وفى ذلك اليوم قدم ابن خبير وابن بنى سيف وابن عوار وابن ايد وابن حمادة وهم من شيوخ العرب المقيمين قبالة شاطئ النيل ومسحوا وجوههم بحافر فرس سليم، وقد طيب خاطرهم بما لا مزيد عليه ورجع كل منهم إلى قبيلته وعليه خلع

(١، ٢) بياض بالأصل.

فاخرة وجمعوا جميع جنودهم على الشاطئ الغربي للنيل، وقاموا بالحراسة إلى حد أن الطير لم يكن يطير من هذا الجانب، وفي البداية حاصر جند الإسلام القلعة الداخلية وبدأ كوزلجه قاسم باشا قَصَفَ القلعة باثنى عشر مدفعاً واقترحها من جبل الجوشى، ودخل عسكر الترك جامع السلطان حسن وتحصَّنوا بالحواجز، ويسمون ذلك باب الوزير، وتحصن الوزير الأعظم ( )<sup>(١)</sup> باشا وراء الحواجز عند جامع النظامية ودارت رحى المعارك ليل نهار. وبينما كان كل طوائف الجند تنحدر من القلعة اتفق أن أخبر بوابو القلعة الداخلية الذين يسمون أبناء الألواح أخبروا السلطان سليم، وفتحوا باب المطبخ وبينما كان السلطان سليم يدخل القلعة الداخلية وفي معيته أغوات الداخل وحراس الباب وسبعة من وزراء القبة، كان رجل أعمى ينتظرهم عند الباب منذ أربعين عاماً، وكان يقول «شوى شوى سلطان سليم»، وبينما كان سليم يدخل القلعة التصق هذا الأعمى بركاب فرس سليم ورقد وأسلم الروح وهو يقول: «شوى شوى يا سليم»، وتحسب بحساب الجمل، وهذا الأعمى مدفون فى نهاية باب المطبخ، والآن أحفاده لهم معاش دائم، وبينما كان السلطان سليم تحت سلّم ديوان قيتباى انطلقت قذيفة مدفع من القلعة وأصابت طرف قمة رأس سليم ثم قام السلطان سليم ومكث فى بناء حصين أسفل حجرات العيارين، وبيّضوا قصر القلعة وزينوه بالأعلام ومن هذا الموضع رأى أهل المدينة أن القلعة الداخلية للقاهرة قد فُتحت؛ فرحب أهل القاهرة جميعاً بجند العثمانيين، وقامت كذلك حرب شعواء رهيبة، وكان للغورى فى الميدان الأسود اثنا عشر ألف جندى زنجى من العرب.

ولذلك يسمون الميدان قره ميدان أى الميدان الأسود، ودخل جند الروملى هذا الميدان واشتبكوا معهم وقاتلوهم ونصبوا جثثهم السود فى الميدان، ولذلك سُمى قره ميدان أى الميدان الأسود.

(١) بياض بالأصل.

## فتح قلعة القاهرة عام ٩٢٢ بعد معركة طاحنة

وقال كمال باشا زاده فتح ممالك العرب سنة ٩٢٢ وقال الشيخ نصر الله سلطان سليم شوى شوى ٩٢٢ وفاتح ممالك العرب سنة ٩٢٣ .

فتح سليم القلعة الداخلية وخلع على كل من دخل القلعة من وزراء ووكلاء وأعيان خلعاً على حسب رتبة كل منهم وبمضمون (الكريم إذا عهد وفا) ولى مصر ووزارتها خيرة بك، ومُنح كمال باشا زاده أحمد أفندى قاضى عسكر الروملى مولويتها، وفى اليوم التالى وهو يوم الجمعة - أدى جند الإسلام صلاة الجمعة فى جامع قلاوون وتلى الخطبة كمال باشا زاده، وذكر فيها خادم الحرمين الشريفين السلطان سليم خان ابن السلطان با يزيد خان، فسجد سليم سجدة الشكر وسمع كل الجراكسة تحت القلعة بأن خيرة بك عُين وزيراً لمصر فأصدوا جميع بواباتهم وجعلوا أسلحتهم وماءهم فى بيوتهم ودامت الحرب ثانية بينهم وبين جند الإسلام سبعين يوماً فى الأسطح والسرديب وفى المنارات ليل نهار.

وهتف جميع أهل القاهرة قائلين: «الله ينصر السلطان طومان باى» وكانت الخطبة فى الصعيد تتلى باسم السلطان طومان باى سبعين يوماً.

وبناء على ذلك قدّم طومان باى وكرتباى و (١) باى المدد إلى مدن الصعيد ثمانى وسبعين مرة، ونشبت المعارك وسُدَّ كل بيت بباب من حديد، وقذفت النساء من أسطحهن وكُوِّتَهن غزاة الإسلام بالحجارة والماء الحار والقاذورات.

وآخر الأمر أمر السلطان سليم لنساء مصر بعلوفة - أى رواتب - وفتح الصعيد، ووقيت رواتب الجوارى فى مصر منذ عهد السلطان سليم، وآخر الأمر استوجب سليم من خيرة بك القضاء على طومان باى ووعد خيرة بك ابن خبير خيراً، والتزم بذلك، وجاءه الخبر بأن طومان باى فى قلعة حصينة فى الفيوم، فأخبر سليم هذا الخبر، فأرسل سليم مصطفى باشا رئيس بكوات الروملى، ومضى مع خبير أوغلى إلى مكمن طومان باى وكان طومان باى نائمًا، ورأى فى منامه النبى ﷺ فقال له: يا طومان باى لا بد أن

(١) بياض بالأصل.

تغار على عرضك. لقد أديت ما يستوجه الشرف، أمض إلى سليم سوف أجعله يأتيني بك. وليأتني سليم الغازي كذلك قريباً؛ فلفظ سليم الغازي يساوي العدد (١٤٦٣) وحقاً بلغ سليم اسطنبول وبعد ألف وأربعمائة وثلاثة وستين يوماً وافاه الأجل بمقتضى قوله - تعالى -: ﴿ ارجعني إلى ربك ﴾ {الفجر: ٢٨} رحمة الله عليه.

وهب طومان باي من نومه وتوضاً في الترو، وصلى ركعتين ثم سلم، وامتطى صهوة فرسه وبينما كان في سيره ظهر أمامه مصطفى باشا فحملة إلى سليم مقيداً، كما أن سليم رأى فيما يرى النائم أن الرسول ﷺ جاءه، وقال له: «ابعث إلى طومان باي واسع في جنازته وأعاهدك أن أجعل مصر لك، وإذا ما بلغت اسطنبول فجنني أنت الآخر. فقال سليم: يا رسول الله لمن أترك مصر؟ فقال رسول الله ﷺ: إن مصر في حمى الله يا سليم، وستبقى في حوزة المسلمين إلى آخر الزمان فلا تحزن وفسى تاريخها أنها ستكون للملك كعب الرابع ابن إبراهيم، من ذريتك»، ولفظ (غم يمه) أى لا تحزن يساوي العدد ١٠٠٣ وفى هذا العام سوف تقوم ثورة فى مصر.

ولفظ كعب من ذريتك يساوى ٩٢ ومحمد كذلك يساوى ٩٢ أى أن محمد الرابع ابن إبراهيم فى هذا التاريخ ستكون مصر فى حوزته. فهبّ سليم من نومه مضطرباً، وبينما كان يصلى قيل له يا مولاي قدّم طومان باي.

### الحوار الذى دار بين طومان باي والسلطان سليم

#### وقتل طومان باي

وبمجرد أن فرغ سليم من صلاته خرج وقال:

مرحباً بك يا أخى طومان باي، فقال طومان باي توأ: لقد قبلت الأخوة وطبق الفتوة الأولى وقد أخذت ما فى يدنا من أموال وجعلت منا نحن الجراكسة كفار ملاحين، والآن تقول يا أخى، وإذا كنت أذاك الكافر فمن تكون؟ عليك أن تختار أحسنهما، فقال سليم: هذا يكون فى سبيل الملك.

فقال طومان باى هل الملك الذى ورثته عن والدك أن تقتل هذا القدر من عباد الله بسبب طمع الدنيا، من سيجيب عن سؤالهم يوم الحساب .

فقال السلطان سليم: لقد ساعدت العجم لذا فأنت تستحق القتل، فقال طومان باى: حاشا لله، ما كان منا عون. إن على الدولة ألبس فرقة من أشراف التركمان سراويل حمراً وسماهم بأسماء مصرية، وقال: إن هذا هو المدد من مصر، وحاشا أن تكون قطعت عنق على الدولة وأرسلت رأسه إلى الغورى فانتقمت أنت، وماذا تطلب غير ذلك. فقال سليم: إنك قتلت رسلنا. فقال طومان باى: إنهم بسطوا لسانهم بالفحش فى حضرة الغورى ولذا قتل منهم عشرة، أما الاثنان الباقيان فلم ينطقا ببيت شفة فأطلق سراحهما.

قال سليم: لماذا خارتنى كل هذه الحروب؟

قال طومان باى: ما دمت قد أغرت على أهلى وعبالى وجئت لتقاتلنى فانا مقاتلك إلى يوم الدين.

قال سليم: لماذا مثلت فى حضرتنا؟

رد طومان باى: إن الرسول ﷺ هو الذى أرسلنى، وهذا ما أقدمنى عليك. وفى النهاية ألقى سليم أن كل كلامه هو الحق.

فقال سليم: ولماذا قالوا: «الله ينصر السلطان طومان باى..؟» قال: إنى أقمت العدل فى الفقراء، ولم أنسهم وهم الآن يحاربون فى الصعيد فاعدل أنت كذلك، وكف عن الحرب، وهم يتبعونك وعندما قال ذلك أمر سليم خيرة بك بصلب طومان باى على باب زويلة ويظل سبع ساعات ثم ينزل. وسار السلطان سليم فى جنازته من باب النصر حتى بلغت العادلية كما حمل نعشه على كتفه، لأن السلطان طومان باى كان يحفظ القرآن ومن أهل العدل والعلم، حتى إن بناء العادلية منسوب إليه وهو مدفون فيه وقد كُتِبَ حول ضريحه تاريخ (تسمائة) (١) وأقيم على ضريحه قبة

عالية وأقيم كذلك جامع، وكان الضيوف يجيئون ويروحون فى جوانبه الأربعة، ولهم منازل ينزلون فيها، كما أقيم قصر شامخ يستريح فيه وزراء مصر أول مقدمهم وبعد

(١) بياض بالأصل.

ثلاثة أيام وثلاث ليال يدخلون القاهرة في موكب عظيم. وجميع موالى مصر ووزرائها المعزولين يمشون في قبر طومان باى طالبين المدد من روحه الشريفة، ويمضون إلى هذا القبر قبل خروجهم إلى أى مكان، إن هذا القبر مزار عام، ويُسمونه العادلية، إنه حديقة كحديقة إرم.

أمر السلطان سليم بصلب طومان باى ودفنه، إلا أن الناس لم يهدأ لهم بال في القاهرة، فكانت مناوشات تقع لأن دولة طومان باى والغورى كانت دولة عظيمة، وقد حزن خيرة بك على الغورى وهو الذى كان دليل العثمانيين إلى مصر.

ولما تولى الحكم نكث الشركاسة جميعاً عهدهم وتحصنوا فى المدينة، وقاتلوا، وأمر خيرة بك العرب بأن تقول «الله ينصر السلطان طومان باى»، وأسمع ذلك السلطان سليم، وكان خيرة بك هو السبب فى قتل طومان باى، وهذا ما أغضب المصريين منه.

وأجبر العرب أن يتعاهدوا وجنّد الأروام، كما أن جنود العثمانيين فتحوا مصر فى سبعة أشهر بعد إلحاق الهزيمة بجنودها، واستقل خيرة بك بالوزارة فى مصر، فاطمان السلطان سليم وتلقى الأسطول العثمانى هذا الخبر وقدم إلى الإسكندرية سبعمائة سفينة ونزل الجند بلا خشية ووصلت بشرى فتح الإسكندرية إلى سليم وقد أقيمت الاحتفالات ودامت سبعة أيام لفتح القاهرة ودمياط والإسكندرية ورشيد وآل الملك فى مكة والمدينة لآل عثمان، وأرسل السلطان سليم إلى أشرف مكة وتبابعة اليمن ونجاشى الحيشة وققان فونجستان وملوك الفور ودنقله وأفنو بورنو وسلطين السودان، وفاس ومراكش وسلطين بلاد المغرب، والبيت العباسى فى بغداد وملك الهند والشاه إسماعيل شاه العجم وحكام البصرة ولحسه وعمان أى جميع السلاطين والملوك رسائل المحبة يقول فيها: «أنا فاتح مصر خدام الحرمين الشريفين».

واستقل السلطان سليم بملك مصر وشغل نفسه بالزم ما يلزم مصر وقام شَغْبُ فى قصر قيتباى فى الصباح ولم يبد شىء ولكن وجد فى جانب من القصر أوهاق طول الواحد منها خمسين باعاً، ورأها سليم فسخط على القاهرة. فانتقل إلى قصر عين القبة وهى الآن تكية للبكتاشية وبما أنه درويش نزل عدة ليال ضيقاً عليهم ومقصورتهم باقية هناك فغادرها، وحقاً إن الروضة روضة من رياض الجنة.

## خبر السلطان سليم الأول مع الفدائي كرتباي

### فى قصر أم القياس،

نزل السلطان سليم ضيفاً على جوستق المأمون فى جزيرة أم القياس خمس أو عشر ليال، وكان ينعم بالإقامة فيه، وكان يقوم بحراسته خدام حجرته إلا أنهم ظلوا عاجزين عن حراسته، وطراً على السلطان سليم وهم طارئى بحيث عزّ عليه المنام.

وحكى حلیمی چلبى الذى كان مرافقاً له يقول: كان السلطان سليم فى أم القياس فى تلك الليلة إلى منتصفها على خير ما يرام، وعندما حان وقت النوم وارتدينا ملابسه لم يكن أحد من الأغيار يعلم أن عدواً تسلل إلى القصر وعندما صاح السلطان سليم على أحد الغلمان، خرج أمامه رجلاً عارياً فى يده سيف خرج بجانب السلطان وعلى بعد ستين ذراعاً من القصر طرح نفسه فى النيل واختفى عن النظر، ورأينا سفينة ترسو بالقرب من القصر ولعل هذا الفدائي قد هبط منها ولكن قصر أم القياس شامخ فى النيل يرتفع مائه ذراع، فاشتد غضب السلطان سليم على جميع خدامه وأمر بحراس حجرته تلك الليلة أن يركعوا لقتلهم.

وكان برويز أغا فى ذلك الوقت وهو من صلحاء الأمة يلزم ركاب السلطان، فقال للسلطان: يا مولاي عليك فى البداية أن تستجوبنا ولك بعد ذلك أن تأمر بقتلنا. لقد عجزنا عن حراستك منذ أن فتحت مصر، ولما قلنا لنتظر سلطاننا تلك الليلة لحراسته ظهر لنا النبى ﷺ من الباب ولم نكن نعرفه ورفع عن وجهه نقاباً أصفر، فكشف عما لوجهه من جمال، وكان عليه خلع من ليف النخيل، وفى قدميه نعلان صفراوان وعلى رأسه الشريف عمامة كأنها حمل بعير، وعلى جانبيه العمامة طيلسانان فسلم ورددنا عليه السلام.

وأراد رفاقنا أن يطردوه ولكنى قلت لهم لنتحدث معه، فسألناه من أين جئت إلى هنا؟ فقال: أنا رسول الله ولدى عهد مع سليم إلى يوم الدين على أن يخدمنى وأنا فى خدمته وذريته فى حمايتى إلى يوم الدين، لتطمئن نفوسكم وإذا وقع شىء فانا أوقظ سليماً من نومه فلا تقلقوا، ونزل من السلم وما كان من وجود لأحد. إن هذه حكمة

عجبية وهذا ما أوقعه فى الحيرة والعجب وبينما كنا نتشاور فى هذا مع رفيقنا نمنا كما نام أصحاب الكهف وبعد مدة من الزمن رأينا سلطاننا يحمل السيف ويصيح ورأينا من يطرح نفسه فى السيمّ ويغيب عن النظر. هو ذا ما قد وقع. وإن الأمر لمولانا السلطان، وعندئذ قال سليم: هذا ما رأيته فى المنام مع الرسول ﷺ، وقال لى: لقد نبهتُ خدامك إلى أن يستريحوا فى طمأنينة فلا تغضب منهم، وخذ حذرک ولكن لا تخف لن يلحق بك من ذلك ضرر، وقال لى: انهض، فاستيقظت فرأيت رجلاً أمامى وقد طرح سيفه بالقرب من قمة رأسى. فأخبرت الناس بذلك وكان الجميع نياماً.

وقال: إن رؤياكم هى الواقع ولقد أطلقت سراحكم وعفوت عن الخدام الملحقين بحجرتى. وأجزل سليم لهم العطاء وجعلهم أمراء على مصر، ومنح كلاً منهم قصرًا شامخًا وكثرة من الجوارى.

ثم مضى سليم إلى القصر ثانية وجعل المنادين ينادون قائلين: فليات من قدم تلك الليلة لقتلى فى قصر أم القياس له منى أمان وعهد آل عثمان، فليحضر دون أن يخاف وله منى الأمان.

وعندما كان المسادون ينادون بذلك قدم بطل شركسى صنيديد يُسمى كرتباى وقال: السلام عليك يا سليم، وكان رابط الجأش، فقال سليم: آئت من قدم تلك الليلة ليقتلنى؟ فقال: نعم أنا هو. فقال سليم: لماذا فعلت هذا؟ فقال كرتباى لماذا لا أفعل ذلك لقد جئت غازيًا بلادنا، واستوليت على أهلى وعيالى، وأهلك ما أهلك من عباد الله، واستشهد فى الحروب معك سبعة من أبنائى واستوليت على كل ما أملك وفرقت بينى وبين أقرانى الشجعان وأولياء نعمتى مثل طومان باى حافظ كلام الله المجيد التقى الشجاع. فقلتُ ينبغى أن أقتل سليمًا هذا وطلبت الإذن من رسول الله ﷺ فإن متاع الدنيا متاع الغرور، ورضاء الله خير وأبقى، لقد نزع الملك من الشركاسة وآل الملك إلى آل عثمان فلا تؤذه.

وفى هذه الليلة قلت يا رسول الله لم يقر لى قرار فلأنتقم من سليم ولذلك مضيت إليك فى تلك الليلة لأقتلك. فقال ﷺ: «إذا ما ذهبت فسوف أوقف سليمًا».

وفى النهاية لم أطق فراق أبنائى وأحبائى، فجئت لأضع رأسى فى رمسى . فاستيقظت ولست أدرى ما الذى أفزعنى فطرحتُ نفسى فى اليم، إلا ما استطعت أن أرتد عن خمسين رجلاً فى محاولتى تلك، ولكن ماذا كان حالى فى تلك الليلة، لقد مررت فى سبْحى بجزيرة وبلغت قارباً فنجوت . وبما أنك أعطيتنى الأمان قَدِمْتُ، وهذا أمر الله .

فَسَّرَ السلطان سليم وضحك قائلاً: جنداً أنت من عدو جميل الوجه صادق القول . من الآن فصاعداً لا تبق فى مصرى، امض إلى الجحيم، وقال كرتباى فوراً: وما شأنك بمصر إن هذه الدنيا متاع الغرور ليست ملكاً لأحد إن كنت عاقلاً فغادر مصر وأمض إلى الجحيم أنا لم أستطع قتلك ولكن فى مصر كم ممن يسخط عليك وسوف يقتلك واحد منهم فى يوم من الأيام وتسوء سمعتك . فسَّرَ سليم من كلامه وأجزل له العطاء حتى إنه صحب غازى كرتباى إلى اسطنبول، ثم فوَّض السلطان سليم كل الأمور إلى خيرة بك .

\* \* \*